دور المسيحيين في الدولة العربية في العصور الوسطى

الدكتور علي أحمد*

الملخص

دار هذا البحث حول المواقف الإيجابية التي اتخذها المسيحيون بوصفهم مواطنين مؤثرين في الدولة العربية في العصور الوسطى في كل مكان حكمه العرب في الشرق والغرب، وقد شمل دور المسيحيين مفاصل الحياة العامة كلّها. ففي مجال السياسة كان دورهم فاعلًا في الحفاظ على استقلال الدولة وحمايتها، وفي مجال الاقتصاد شغلوا دورًا كبيرًا في تطور الصناعة والتجارة والزراعة.

وفي مجال العلوم كان دورهم رائدًا ولاسيَّما في مجال الطب والصيدلة والزراعة والهندسة، وعلوم الطبيعة والفلسفة العقلانية وعلم الكلام. كما شغلوا دورًا مهمًا في أعمال التحرير ضد الفرس في العراق وضد البيزنطيين في بلاد الشام والمغرب. وبرز دورهم الإيجابي أكثر خلال الاحتلال الفرنجي لبعض المناطق الشامية، حيث شغلوا دورًا مهمًا في محاربة هذا الاحتلال بالوسائل المناسبة كلّها.

وبالجملة فقد كانوا من المكونات الاجتماعية الإيجابية.

* قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

مقدمة:

شغل المسيحيون العرب دورًا إيجابيًا لافتًا في مجتمع الدولة العربية في العصور الوسطى، وقد انطلقوا في ذلك من خلال ثقافة عربية أساسها الإخلاص والوفاء للوطن والتضحية من أجل أن يظلَّ على الدوام، يتمتع بالقوة والمنعة والاستقلال . فقد كانوا في هذا المجال الحيوي روادًا كبارًا، فحاولوا في كل مناسبة صنع موقف نافع ومفيد لوطنهم وأبناء جلدتهم، يحدوهم في ذلك أن يكون وطنهم في الطليعة على مختلف الصعد . فقد كانوا روادًا في العلوم والإدارة والدفاع عن أوطانهم في أصعب الظروف وأقصاها، وكانوا روادًا أيضًا في الاقتصاد والحرص على التعايش مع مكونات المجتمع كلِّها ، فلم يعرف عنهم أنهم مارسوا فعلًا يسيء إلى الآخرين، أو أنهم حاولوا أن يكونوا تكتلًا مميزًا عن غيرهم، بل كانوا كما سنرى في مواضع متفرقة من هذا البحث، في المقدمة في كل مجال من مجالات الحياة (*).

هذا الواقع الإيجابي للمسيحيين تابعناه في الصفحات الآتية، ولاسيَّما في أيام العدوان على أمتنا العربية، منذ عصر الرسول الكريم حتى نهاية العصور الوسطى، فتحدثنا عن مواقفهم الكبيرة خلال عمليات الفتوح العربية، في العراق والمغرب الكبير بهدف نشر ثقافة التعريب في هذه المناطق الحيوية، ثم عن مواقفهم في مساندة الحكام في تعريب الإدارة العامة منذ العصر الأموي حتى نهاية العصور الوسطى، ثم عن مواقفهم الخالدة في عمليات الدفاع عن الشام وغيرها ضد الحملات الفرنجية التي بقيت تهدد المشرق العربي على مدى أكثر من مئتي عام، ثم عن جهودهم الكبيرة في تطوير العلوم على أسس علمية تعتمد على الممارسة والتجربة للوصول إلى نتائج حقيقية ملموسة، ثم عن إسهاماتهم المهمة في تحسين مكونات الاقتصاد العام من تجارة وصناعة وزراعة، إلى غير ذلك من أمور مشابهة.

حينما بدأت الفتوح العربية باتجاه الشام والعراق ومصر، كانت هذه المناطق تخضع للسيطرة البيزنطية في مصر والشام وللسيطرة الفارسية في العراق، وكان سكان

(*)– برتولد، شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، الترجمة العربية، طبعة دمشق، دار حسان، 1982، ص: 107.

هذه المناطق من المسيحيين الذين رفضوا على مدى وجود البيزنطيين، أن يتعاونوا معهم مع ما يجمعهم على صعيد العقيدة الدينية، وهذا أمر مهم ينبغي أن ينوه به، لأن العامل الديني لم يكن في يوم من الأيام عامل توحيد أو تجميع، بقدر ما كان العامل الوطني الذي يعتمد على قضية الجذور الواحدة واللغة الواحدة والثقافة الواحدة.

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين:

ففي المجال السياسي شغل المسيحيون دورًا إيجابيًا منذ المرحلة الأولى لظهور الإسلام، وكانوا أداة نافعة في مسيرة النبي محمد ﷺ، فقد بشروا بقدومه الميمون، وحينما بدأ ينشر رسالته للناس، عارضه القرشيون بشدة كما هو معروف، وخشي على مؤيديه الأوائل، فأرسلهم إلى الحبشة التي كان يقودها النجاشي صاحب العقيدة المسيحية، فاستقبلهم بالترحاب والمودة، ووفر لهم الرعاية والحماية والعيش الآمن، وهي أمور لم تكن متوافرة لهم في المجتمع المكي. فقد قال لأصحابه ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[1] وقد عاملهم الأحباش وفي طليعتهم القائد النجاشي أحسن معاملة . وقد رفض رفضًا قاطعًا تسليمهم أو الضغط عليهم في أي شكل من الأشكال؛ وذلك انطلاقًا من أنهم لجؤوا إليه دون غيره من أجل الحماية والرعاية والأمان[2]. وهذا ما أجبر الوفد القرشي الذي حضر إلى الحبشة علّه يقنع النجاشي بتسليمهم أو طردهم، أجبره على العودة إلى مكة المكرمة يجر أذيال الخيبة والخذلان، بعد أن حاول عمرو بن العاص أن يقنع النجاشي بأن هؤلاء الصحابة، يهاجمون عيسى بن مريم. وقد بقوا في الحبشة حتى سنة 7هـ/629م، حينما أرسلهم النجاشي على بعض سفنه[3].

1– تاريخ الطبري، ج1، ص:181؛ ابن هشام، جـ1، ص:322؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ2، ص:4.

2– ابن هشام: المصدر السابق، جـ1، ص:334؛ وما بعدها ابن كثير: البداية والنهاية، جـ2، ص:21. وانظر السيد عبد العزيز سالم: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، طبعة دار النهضة العربية، بيروت، من دون تا.

3– ابن كثير: البداية والنهاية، جـ2، ص: 27.

وقد أكد النبي الكريم منذ أن وصل إلى المدينة المنورة قادمًا من مكة المكرمة مسألة مهمة جدًا بالنسبة إلى المسيحيين، هي أن عدّهم مواطنين لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، وهنا ينبغي أن ننوه بأن النبي ﷺ لم يكن يقصد بذلك المدينة المنورة وحدها بل كان يعرف على ما يبدو، أن الإسلام سينتشر في بقاع فيها مسيحيون وغير مسيحيين، وهو واقع اشتهر به العرب منذ ذلك الحين حتى اليوم دون غيرهم من الشعوب والأمم، ذلك لأن الرسول الكريم ﷺ، كان يؤسس لدولة عربية، تمتلك أساليب الدولة القيادية ومتطلباتها كلّها التي تستوعب جميع المكونات البشرية على اختلاف دياناتهم وأعراقهم. وهذا ما ظهر جليًا حينما استقبل الرسول الكريم ﷺ بالمدينة المنورة كبير أساقفة نجران، وأجرى معه محادثات مطولة، تخللتها الوسائل الدبلوماسية ومظاهر الاحترام والمودة. وكان الرسول الكريم ﷺ ينطلق من حق المواطنة العربية، التي كان أثرها كبيرًا في وحدة الدولة واستقلالها واستمراريتها[4] كما قال تعالى في كتابه العزيز **﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[5]. وحينما عاد الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة بعد معركة تبوك سنة 9هـ/631م، سمع بموت النجاشي صاحب الحبشة، قام فصلى عليه مع بضعة من أصحابه صلاة الغائب، وهي أول صلاة على غائب نفذها الرسول الكريم ﷺ[6].

ولابدَّ أن تأثير مواقف الرسول الكريم ﷺ الإيجابية هذه كان كبيرًا في نفوس المسيحيين[*] الذين وقفوا مواقف إيجابية تجاه المسلمين، ولاسيَّما حينما بدأت الفتوحات العربية في عصر الراشدين في مصر والشام والعراق، ممَّا ساعد على سرعة إنجاز عملية التحرير في البلدان سابقة الذكر، فقد انضم المسيحيون إلى إخوانهم الفاتحين

4- ابن هشام: السيرة، جـ1، ص:501؛ ابن حزم: جوامع السيرة، ص: 96.

5- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 110.

6- البلاذري: فتوح البلدان، جـ1، ص: 82؛ أحمد الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص: 210 وما بعدها. ويقال إنَّ سبب هذه الصلاة هي أن النجاشي كان قد دخل الإسلام.

(*) نقصد بالمسيحيين هنا مسيحيي الشام أو المسيحيين العرب، لأن المسيحيين من غير العرب، لأن المسيحيين من غير العرب لم يكونوا مع مصالح العرب، ومع ذلك لا يخلو الأمر من وجود شذوذ من الأطراف كلّها.

القادمين من جزيرة العرب، مثال ذلك بنو نمر وبنو تغلب، الذين أعربوا عن موقفهم بكل وضوح وصراحة بقولهم: (نقاتل مع قومنا)[7].

وقد حدث ذلك في العراق بشكل خاص في معركة البويب سنة 13ه/635م . كذلك فعل عرب جنوب بلاد الشام، حينما استقبلوا الجيوش العربية الفاتحة بالترحاب، وعدوهم مخلصين لهم من السيطرة البيزنطية، فضلًا عن اشتراكهم معهم في العرق واللغة والانتماء[8] ولاسيما مدينة دمشق التي أسهم أهلها بدخول الفاتحين إليها دون مقاومة، وهنا لابد من لفت النظر إلى أن أهل دمشق لم يكونوا جميعًا قد تركوا مقاومة الفاتحين، بل وجدت مجموعة قاومت الفاتحين إلى جانب المحتلين البيزنطيين، وقد هرب أفرادها مع البيزنطيين حينما قرروا الهرب. وكذلك فعلت معظم مدن الشام الأخرى، ذلك لأن أهل هذه المدن، أيقنوا بأن الفاتحين من إخوانهم العرب، سيخلصونهم من ظلم مارسه عليهم الروم وقتًا طويلًا[9].

وقد حدث الشيء نفسه في مدينة القدس بفلسطين، حينما أصر البطريرك صفرونيوس على عدم تسليم مفاتيح المدينة المقدسة إلا للخليفة عمر بن الخطاب، ذلك لأن البطريرك صفرونيوس بوعيه العربي الناضج، كان يرى في عمر بن الخطاب زعيمًا عربيًا حريصًا على عرب مدينة القدس برمتهم، ومن خلال ذلك يمكن الحفاظ على مقدسات المسيحيين كلّها، ولاسيَّما الكنيسة العظمى، وهذا ما حصل على أرض الواقع، حينما حضر عمر بن الخطاب إلى مدينة القدس، وأعطى الأمان للمسيحيين لكلّهم فيها، منطلقًا بذلك من حق المواطنة، الذي هو من حق الجميع بغض النظر عن دياناتهم وانتماءاتهم، ذلك لأنهم جميعًا يعيشون في ظل هذا الحق عيشة هانئة مستقرة وآمنة، وهو ما عرف في التاريخ العربي في عصر الراشدين بالعهدة العمرية[10].

7– تاريخ الطبري: جـ4، ص: 73؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص: 211.

8– البلاذري: فتوح البلدان، جـ1، ص: 162؛ تاريخ الطبري: جـ4، ص: 155.

9– البلاذري: فتوح البلدان، جـ1، ص:140 وما بعدها؛ ابن الأثير: الكامل، جـ2، ص: 428.

10– البلاذري: فتوح البلدان، جـ1، ص: 167 وما بعدها؛ تاريخ الطبري: جـ4، ص: 159؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، طبعة القاهرة، 1952، ص: 65.

ولم يكن المسيحيون المصريون بأقل من أهل الشام والعراق على صعيد مساعدة الفاتحين العرب، فقد انضم المسيحيون في مصر إلى صفوف الفاتحين منذ اللحظة الأولى لوصولهم إلى أرض مصر، وقاتلوا مع الفاتحين ضد الروم البيزنطيين . فقد كتب بنيامين بطريرك الإسكندرية، حينما سمع بدخول العرب الفاتحين إلى مصر إلى المسيحيين سكان مصر، يأمرهم باستقبال عمرو بن العاص والانخراط في صفوف جيشه، وأن يمتثلوا لأوامره وأن يعملوا تحت قيادته[11].

وقد أثرت مواقف المسيحيين الإيجابية هذه بعمر بن الخطاب، فأمر بإعفاء بني تغلب من المسيحيين من دفع الجزية طوال حياتهم، لكنه من ناحية أخرى ضاعف عليهم الصدقة، لأن الصدقة لا تخص جماعة معينة، بل هي لجميع أتباع الديانات والمذاهب، وبذلك يكون عمر بن الخطاب، قد نجح في إقناع التغالبة بأنه لا يقلون عن المسلمين. وسبب ذلك فضلًا عن المواقف سابقة الذكر، أنهم كانوا متميزين في حبهم للعرب والعروبة وأوفياء لكل ما يخدم مصالح الأمة، وتلاقى ذلك الواقع مع قناعة عمر بن الخطاب، في أن المصلحة العليا للأمة ككل، لا تتحقق إلا من خلال العرب تحديدًا، ذلك لأن المشاعر العربية كانت تتفوق على المشاعر الأخرى كلّها ، لأنها هي التي تحافظ على تماسك الدولة العربية ووحدتها. وقد برهنت الأحداث بعد الخلافة الراشدية صحة هذا الأمر، حينما عجزت رابطة الدين عن توحيد من دخلوا الإسلام من الأمم كلها، فقد سعى الفرس لتحقيق مصالحهم القومية والوطنية، وكذلك فعل الأتراك، وحينما تأخر العرب عن فعل ذلك أي التمسك بعروبتهم وجذورهم القومية والوطنية، سقطوا تحت سيطرة الآخرين من فرس وأتراك ومماليك، ولم تنفعهم روابط الدين التي تربطهم بهؤلاء في تحقيق أدنى شيء من حقوقهم، وكانوا على الدوام في أسفل الدرك الاجتماعي، ليس لهم من الأمر سوى طاعة هؤلاء الغرباء وخدمتهم في ما يأمرون ويريدون[12].

11- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص:86 و106 و107؛ البلاذري: فتوح البلدان، جـ1، ص: 249؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، طبعة القاهرة، 1933، ص: 133؛ شكري فيصل: المرجع السابق، ص: 121.

12- ابن الأثير: أسد الغابة، جـ3، ص: 381؛ إبراهيم سعيد وعلي أحمد: نهاية عظماء العرب في العصور الوسطى، طبعة دمشق، 1999، ص: 22 وما بعدها.

في العصر الأموي:

أمَّا في العصر الأموي[13] فقد تمتع المسيحيون بحريات واسعة، وشغلوا دورًا مميزًا في المجتمع الأموي على الصعد كلّها، ساعدهم على ذلك وجود حالة متقدمة في المجتمع الأموي بعامة، الذي لم يكن يعكر فيه صفو أية مجموعة من مكونات المجتمع، إلا قضية التعرض لمشكلة الحكم والسلطة. وقد ساعد على وجود هذه الحالة الطيبة، أن الأمويين كانت لديهم قابليات كبيرة للحياة والعيش بعيدًا عن مظاهر التعصب والتقوقع والانغلاق على الذات، فمارسوا حياة مميزة تخللها مظاهر الرفاهية وألوان التلذذ بمباهج الحياة ومسراتها[14].

فقد رسم معاوية بن أبي سفيان للأمويين بعامة معالم حياتهم الاجتماعية التي اشترك فيها المسيحيون في المواقع والمناسبات كلّها، فقد تزوج معاوية بامرأة مسيحية هي ميسون بنت بحدل الكلبية، دون خوف أو وجل من أن يقال إنه تزوج بمسيحية، وبذلك سن خطة سليمة وإيجابية محورها، أن لا فرق بين مسلم أو مسيحي، ويستحق على ذلك التقدير والعرفان، لأن هذه الخطوة الشجاعة أثرت في نفوس الآراميين المسيحيين من أهل مدينة دمشق فدخل قسم كبير منهم في الإسلام، وبقي قسم آخر على المسيحية، فعاملهم بمحبة ورفق واحترام[15].

واعتمادًا على موقف معاوية بن أبي سفيان تجاه المسيحيين، نالوا حظوة كبيرة فيما تبقى من العصر الأموي بعد خلافة معاوية، وشغلوا مراكز مرموقة في شتى الميادين، وكانوا موضع احترام وتقدير من رجال الحكم وبقية عامة الشعب من المسلمين، لم يتجرأ أحد على مسهم بشيء من المضايقة أو الإزعاج، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على حالة من الوعي الوطني والديني عند الحكام والشعب على حد سواء، وهذه الحالة من الوعي تجسد مقصدًا مهمًا من مقاصد شريعة الإسلام، وهي احترام الآخر، الذي يتكون برمته تقريبًا من أهل الذمة. والأمثلة كثيرة على هذا الواقع الإيجابي في العصر الأموي، نذكر منها أن معاوية بن أبي سفيان، اعتمد في كثير من الأمور على شخصيات مسيحية

13– بدأ هذا العصر سنة 41هـ وانتهى سنة 132هـ .

14– تاريخ الطبري: جـ6، ص: 553.

15– الأصفهاني: الأغاني، جـ4، ص: 59وما بعدها.

مرموقة، فكان طبيبه الخاص مسيحيًا وهو ابن أثال[16]، الذي كان يرافقه في حله وترحاله، وذلك لشدة ما كان يثق به ويعتمد عليه ويعتقد فيه، وكثيرًا ما كان يبقيه معه في الليل خوفًا من مرض مفاجئ.

كذلك فإن هشام بن عبد الملك، سار على طريق معاوية بن أبي سفيان على صعيد احترام المسيحيين وتقديرهم، فلاقوا في عصره أشكال التقدير والاحترام كلّها، ووصل به الأمر إلى حدود أوسع وأشمل من تلك التي كانت في عصر معاوية، فقد تقرب إلى المسيحيين، ولم يكن متعصبًا ضدهم، حتى أنه سمح لمسيحي أنطاكية بأن يعينوا شخصًا منهم لشغل كرسي بطريركية أنطاكية، بعد أن كانوا قد حرموا من ذلك مدة طويلة، وقد عين لهذا المنصب الكبير في عصره الراهب أستيفانوس، ويسميه العرب أصطفان[17]

هذا ولم يعترض هشام بن عبد الملك على تصرف واليه على العراق خالد بن عبد الله القسري الذي أقدم على بناء كنيسة لوالدته المسيحية بمدينة الكوفة قبالة مسجدها، كما لم يعترض على استخدامه مجموعة كبيرة من المسيحيين في جباية الأموال العامة في ولاية العراق[18].

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أن الأمويين بقوا يعتمدون في دواوينهم على موظفين مسيحيين، حتى جاءت خطوة عبد الملك بن مروان الكبيرة التي تجسدت بتعريب دواوين الدولة وعملتها الرسمية، فخف الاعتماد عليهم بالتدريج، وهذا الأمر لم يطبق على العرب منهم، بل طبق على البيزنطيين، الذين كانوا يسيطرون على المفاصل المهمة في دواوين الدولة بمصر والشام والمغرب. وفي عصر الوليد بن عبد الملك تجسد التعاون مع المسيحيين بشكل كبير ولافت، حينما اتفق معهم بعد محادثات مع كبار الشخصيات منهم، على أن يتنازلوا عن القسم الغربي من كنيسة يوحنا المعمدان، مقابل أربع كنائس منحهم حق العبادة فيها[19].

ومع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز، كان متشددًا في تطبيق أوامر الدين والاعتماد عليها في الحكم، إلا أنَّه أبدى مرونة كبيرة تجاه المسيحيين، وعاملهم معاملة طيبة، وترك

16- ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص: 171.

17- فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص: 334 وما بعدها.

18- تاريخ الطبري: جـ7، ص: 131.

19- نبيه العاقل: تاريخ الدولة الأموية، ص: 183.

لهم حرية العبادة في كنائسهم، وكتب بذلك إلى ولاة دولته، وذلك تطبيقًا لتعاليم الإسلام، التي تحض وتؤكد احترام أهل الذمة، كما قال الرسول الكريم :«من آذى ذميًا فقد آذاني»[20].

وقد تميز العصر الأموي بميزة خاصة، هي أن الأطباء في هذا العصر كانوا من المسيحيين الذين ظهرت قدراتهم العلمية وحرصهم على سمعتهم الطيبة، من خلال العمل عند الخلفاء منذ البداية حتى النهاية . كان في طليعة هؤلاء الأطباء الطبيب ابن أثال، الذي اشتهر أمره في عصر معاوية بن أبي سفيان، وكان سبب هذه الشهرة، أن معاوية اعتمد عليه في تحضير السموم للتخلص من الأعداء والمعارضين، وكذلك في تحضير الأدوية لمداواته في الأوقات الضرورية[21].

اشتهر بعد ابن أثال الطبيب المعروف بأبي الحكم الدمشقي، وهو شبيه بابن أثال [إلى حد كبير] في ميدان اختصاصه في تحضير السموم والأدوية وتشخيص الأمراض، واستخدامه من قبل معاوية في قتل المعارضين . ولكن معاوية توفي قبل هذا الطبيب، الذي لا تتحدث المصادر عن مصيره بعد وفاة معاوية، سوى ذكر أنه استمر في الحياة حتى عصر عبد الملك ابن مروان، وهو الذي أشرف على معالجته في مرض موته[22].

لكن ابنه الذي عرف بالحكم الدمشقي، نال شهرة واسعة أكثر من ابن أثال ومن أبيه، فقد تفوق عليهما في أنه عارف ببعض المسائل الجراحية مثل أعمال القصد، وإيقاف النزوف الدموية المستعصية والبسيطة، وقد أفاد الأطباء منه في قضية استخدامه قشر الفستق في عملية وقف النزوف[23].

وفي أثناء ولاية الحجاج بن يوسف على العراق، اشتهر طبيبه الخاص تياذوق الذي اشتهر عنه معرفته العميقة في صنعته واختصاصه، وقد أفاد الناس من خلال نصائحه الطبية التي كان في طليعتها ضرورة المشي ولاسيَّما في وقت المساء، وضرورة

20– تاريخ الطبري: جـ6، ص:499.

21– ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ص:171.

22– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص: 175 وما بعدها.

23– لوسيان لوكليرك: تاريخ الطب العربي، ص: 86.

الاستحمام في أوقات متقاربة، وعدم حصر البول في المثانة طويلًا وما إلى ذلك من أمور. وهو أول طبيب ربما في العصر الأموي، اهتم بقضية التأليف والكتابة . فقد كتب كتابًا سماه (إبدال الأدوية ومزجها) وقيل : إنه كان من الكتب الجيدة في بابه[24].

ومن الأطباء المسيحيين أيضًا الطبيب ماسرجويه الذي اشتهر بأنه أول طبيب في العصر الأموي ركز على مسائل الترجمة إلى اللغة العربية، وأول ما قام بترجمته كتاب أهرن بن أعين القس في الطب، وقد قيل: إنَّ هذا الكتاب من الكتب العلمية النفيسة، وهذا ما جعل عمر بن عبد العزيز يأمر بنسخ هذا الكتاب نسخًا كثيرة للاطلاع عليه والإفادة من مضمونه. فضلًا عن ذلك قام بتأليف بعض الكتب منها كتاب سماه (قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها)، وكتاب (قوى العقاقير ومنافعها ومضارها)[25]. لكن مع معارفه هذه، إلَّا أنَّه لم يكن موفقًا في تشخيص الأمراض.

وقد أسهم المسيحيون في تقدم علم الكلام وتطويره، الذي ظهر أول مرة في العصر الأموي، ولاسيَّما في المرحلة المتأخرة من هذا العصر، التي عُدَّت المرحلة الذهبية لظهور هذا العلم الذي انبرى أصحابه للدفاع عن الدين والعقيدة، لكن هذا العلم حينما ظهر في هذه المرحلة، كان قد ظهر عليه التأثير بأفكار اليعاقبة والنساطرة الذين كانوا يجعلون من طبيعة السيد المسيح محورًا لمناقشاتهم وجدلهم العام، وكذلك نفي التشبيه وإيمانهم بمسألة القدر. ولعل أشهر هؤلاء على الإطلاق يوحنا الدمشقي صاحب كتاب (ينبوع المعرفة) الذي ضمنه أفكارًا تتعلق بالخير الذي قال: إنَّه من الله سبحانه وبالشر الذي قال: إنَّه من صنع البشر وحدهم، ويكون ذلك باقترافهم لأشياء مخالفة تستحق العقاب[26]. وقيل: إنَّ يوحنا هذا كان زميلًا وصديقًا ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، لكنه ترك دمشق وانتقل إلى فلسطين، حيث عاش فيها بدير سابا.

---

24 – ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص: 179 وما بعدها.

25– القفطي: تاريخ الحكماء طبعة ليبزع، 1930، ص: 334 وما بعدها ابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد السيد، ط1، القاهرة، 1980، ص: 61.

26 – عادل العوا: الكلام والفلسفة، طبعة جامعة دمشق، 1961، ص: 14.

اشتهر إلى جانب يوحنا الدمشقي غيلان الدمشقي الذي كان من أعظم علماء القدرية ومفكريها، إلى درجة يعدُّ بحق المؤسس الأساس لها[27] ، وقد ظهر أمره بوضوح في خلافة عمر بن عبد العزيز، الأمر الذي تمكن في البداية أن يتكلم بحرية في مسائل القدرية، ولاسيَّما مسألة أن الإنسان قادر على صنع الخير والشر، وقد بالغ في ذلك، فاضطر عمر بن عبد العزيز أن يحضره إلى مجلسه ويجادله، وتوصل إلى مرحلة كان سيقتله فيها، لولا أن غيلان أعلن في حضرته إقلاعه نهائيًا عن الحديث في هذه المسائل حتى توفي عمر بن عبد العزيز، فعاد من جديد واستأنف حديثه عن القدرية، التي كان يستغلها لإظهار عدم شرعية الخلفاء الأمويين، وكانت من أخطر الحركات الفكرية المتطورة على الخلفاء الأمويين الذين كانوا في نظر أصحاب هذه الحركة المتطورة غاصبين للسلطة والحكم، وهم في موضع إداري خطير لا يستحقونه، واستنكروا مسألة ادعائهم بأن الله سبحانه، قدر لهم أن يكونوا حكام الأمة وخلفاءها، ولا يجوز لأحد أن يعترض على ذلك، لكن القدريين أنكروا هذا الاعتقاد نهائيًا معتمدين على أدلة واضحة من القرآن والحديث. وجاء في إنكار القدريين لمبدأ الأمويين، أن الإنسان يمتلك كامل الحرية في اختيار أشيائه وحاجاته وما يناسبه، أي إنَّه مخير لا ميسر، بمعنى أنه يستطيع أن يفعل الخير والشر على حد سواء، والله سبحانه يجزيه على الخير، ويجزل له العطاء والجزاء، ويعاقبه على الشر بقدر ما يستحق. أضف إلى ذلك كلّه أنَّ أصحاب الفكر القدري، كانوا يؤمنون إيمانًا قاطعًا، بأن الله سبحانه فوق كل ما يعلمه الناس، وهو غني عن ذلك، وقدرته أيضًا فوق قدرتهم، فليس بحاجة لقدرة خارجية على الإطلاق[28] وحينما تولَّى هشام بن عبد الملك الخلافة، أمر أن تقطع يداه ورجلاه، فمات على إثر ذلك، وأمر بصلبه[29].

27– اسمه الكامل غيلان بن يونس القدري الدمشقي، وقد بقي بمدينة دمشق مع المضايقات التي حصلت له والتي انتهت بموته في عصر هشام بن عبد الملك، وذلك بعكس يوحنا الدمشقي، الذي شعر بالخطر فانتقل إلى فلسطين كما ذكرنا.

28– حنا فاخوري وخليل الجر: المرجع السابق، ص: 85.

29– الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ4، ص:290؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص: 87.

ويُعدُّ هذا الحادث جريمة كبيرة بحق الفكر الإنساني بعامة، وكذلك بحق العلم وبحقوق الإنسان، ذلك لأن ما كان يقوله ويروج له غيلان الدمشقي، كان يمثل بداية انطلاقة لمشروع فكري مهم، يعتمد على العلمية والمنهجية والرصانة، ربما كان سيؤدي إلى نتائج مذهلة في حقل مسيرة التقدم الفكري الإنساني، فيما لو أُحيط بالعناية والرعاية والاهتمام. ومع ما حدث لغيلان الدمشقي، إلّا أنَّه تأثر بفكره بعض الشخصيات الأموية الحاكمة مثل يزيد بن الوليد[30]. وهذا الحادث يدلُّ بوضوح على تركيز هشام بن عبد الملك على مسألة الجبرية التي هي نقيض القدرية التي نادى بها غيلان الدمشقي.

وقد ساعد المسيحيون في بناء المسجد الأموي بدمشق، وقد تجسدت هذه المساعدة في تخليهم عن طريق الاتفاق والرضا مع المسلمين عن القسم الغربي من كنيسة يوحنا المعمدان، ويرى بعضهم أن هذه ليست مساعدة بقدر ما هي مصلحة للمسيحيين والمسلمين في الوقت ذاته. وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك الذي صمم على بناء مسجد كبير يستوعب أكبر عدد من المصلين، وهو ما عرف منذ إنجازه سنة 96ه/715م بالمسجد الأموي. وكان المسيحيون قد تخلوا عن القسم الشرقي في خلافة معاوية بن أبي سفيان الذي بنى مكانه مسجدًا سمي بمسجد الصحابة[31].

وفي العصر الأموي أيضًا اشتهر المسيحيون على صعيد حيوي، هو صناعة السفن في مصر والشام، وكانوا رواد هذه الصناعة في الإسكندرية والقاهرة وصيدا وصور وبيروت وغيرها. وقد استعان حسان بن النعمان الغساني بمجموعة من المسيحيين المصريين الذين كانت لهم خبرتهم الواسعة بصناعة السفن، فجلبهم إلى مدينة تونس التي بناها، بعد أن دمر مدينة قرطاجة. وقد تمكن هؤلاء المصريون من بناء دار لصناعة السفن والمراكب البحرية، كانت من أهم قواعد البحرية في الشاطئ الغربي للبحر المتوسط، بدءًا من سنة 114ه/733م وما بعدها. وقد أدت هذه القاعدة مهمة وطنية دفاعية في مواجهة الأساطيل البيزنطية[32].

30 – الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ4 ص:290؛ عادل العوا: المرجع السابق، ص: 23.

31– زكي محمد حسن: فنون الإسلام، طبعة بيروت، دار الرائد العربي، 1981، ص: 40.

32– لمالكي: رياض النفوس، جـ1، ص: 37 وما بعدها؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ4، ص:180؛ ابن عذاري: البيان، المغرب، جـ1، ص: 35.

في العصر العباسي:

أمّا في العصر العباسي فقد شغل المسيحيون دورًا إيجابيًا لافتًا، كان استمرارًا لذلك الدور الرائع الذي شغلوه في العصر الأموي. فقد شاركوا بفعالية كبيرة في شتّى مجالات الحياة، وكانت لهم أيادٍ بيض في حركة التقدم والازدهار والتميز التي حصلت في العصر العباسي، فقد اندمجوا في مسيرة الحياة العامة، يحدوهم في ذلك محبتهم لبلادهم وشعورهم بالأمان والاطمئنان في دولة عربية الوجه واللسان وحضارية في توجهها العام، هي الدولة العباسية التي حافظت على ذلك الجو الإيجابي الرائع الذي كان سائدًا في العصر الأموي، ولاسيَّما سيادة مفهوم المواطنة وتشجيع المبدع وإنحاء اللائمة على المثبط والمعطل. ولعل من أهم الأفعال الكبيرة والمؤثرة التي قام بها وأنجزها المسيحيون في هذا العصر، هي إقبالهم الكبير على أعمال الترجمة من اليونانية وغيرها إلى العربية، وكان إقبالهم على الكتب العلمية في الطب والصيدلة والفلك والفلسفة العقلانية، وهي علوم وجدوا فيها أسسًا قوية لبناء نهضة علمية تليق بدولة كالدولة العباسية، ولاسيَّما في عصرها الأول، وذلك لتوافر خلفاء كبار في تطلعاتهم وبرامجهم ونظرتهم الإيجابية وسعيهم الدؤوب للوصول إلى أعلى المراتب في السياسة والعلم والبناء والنظرة إلى الآخر على أساس المواطنة الحقة. وهو ما تجسد في مسيرة الخلفاء المنصور والمهدي وهارون الرشيد والمأمون وغيرهم الذين أرادوا أن يقودوا العالم من خلال العلم وانتشار الثقافة العربية، ويكون ذلك بصنع ثقافة متفوقة ومفيدة في شتى المجالات[33].

بدأت حركة الترجمة، التي نفذها المسيحيون في عصر الخليفة المنصور وتابعت سيرها بقوة في عصر الخلفاء الذين جاؤوا بعده، وتبلورت في هيئة علمية في عصر الخليفة المأمون، سميت آنذاك (بيت الحكمة) التي اهتمت بتطوير العلوم التطبيقية المهمة وتشجيعها كلّها، وكانت الترجمة إلى العربية من أهم أدواتها ومشجعاتها، وهذا ما جعل الخليفة المأمون يغدق العطاء للمترجمين بشكل لم يعهد من ذي قبل، ولم يتكرر بعده

33– انظر عن ذلك علي أحمد: مظاهر التعريب في الدولة العربية في العصور الوسطى، طبعة دمشق، 2009، ص: 81.

للأسف[34]. وكان المحرك الأساسي لهؤلاء الخلفاء في هذا المجال الحيوي، هو أنهم كانوا على قناعة راسخة بضرورة مواكبة القوة العلمية للقوة العسكرية والمادية، ممَّا يؤدي إلى إنتاج دولة عربية عزيزة الجانب وتحقيقها وصنعها، تعتز بما لديها من ذخائر علمية وثقافية عامة أمام الأمم الأخرى. فقد أقدم المنصور على استدعاء جورجيس بن بختيشوع إلى مدينة بغداد، وكان آنذاك مسؤولًا عن الطب في مدرسة جنديسابور[35].

وبصورة عامة فقد قاد المسيحيون حركة ترجمة إلى العربية، اعتمدت في العصر العباسي الأول على ثلاث مجموعات كبيرة. تألفت المجموعة الأولى من عدد من المترجمين، بدأت في عصر الخليفة المنصور وانتهت في عصر الخليفة هارون الرشيد[36]، ومعظم رجال هذه المجموعة كانوا من مدرسة جنديسابور، وفي مقدمتهم جبرائيل بن بختيشوع. أمَّا المجموعة الثانية فهي التي ظهرت في خلافة المأمون[37]. ومن رجالها يوحنا بن البطريق، وقسطا بن لوقا، والحجاج بن مطير، وعبد المسيح بن نعيمة الحمصي وغيرهم. لكن الذي تفوق على هؤلاء جميعًا، هو حنين بن اسحق الذي اشتهر كثيرًا على صعيد الترجمة والتعريب، ولاسيَّما أنه أسهم في ترجمة كتب أبقراط وأرسطو وغيرهما. أمَّا المجموعة الثالثة فهي التي ظهرت في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ومثلها بشكل خاص، متى بن يونس، ويحيى بن عبادي، وهلال الحمصي، وسنان بن ثابت بن قرة الحراني، وهؤلاء اهتموا بالترجمة عن اليونانية في مجال المنطق والفيزياء[38].

34- ابن النديم: الفهرست، ص: 116؛ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص: 109 وما بعدها؛ عبد الرحمن مرحبا: تاريخ العلوم عند العرب، طبعة بيروت، دار العودة، 1978، ص: 205 وما بعدها.

35- المسعودي: مروج الذهب، جـ3، ص: 279؛ ابن قتيبه: عيون الأخبار، طبعة القاهرة، جـ2، 1958، ص:20؛ ابن خلكان:: وفيات الأعيان، جـ5، ص: 161.

36- بدأت هذه المجموعة عملها في سنة 148هـ وانتهت في سنة 193هـ .

37- بدأت في سنة 198هـ واستمرت حتى سنة 218هـ .

38- ابن النديم: المصدر السابق، ص: 380؛ ابن خلكان: المصدر السابق، جـ1، ص: 313 ؛ شعبان خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، طبعة القاهرة، 1997، ص: 96 وما بعدها.

وقد تعاونت هذه المجموعات الثلاث مع مجموعة أخرى من غير المسيحيين، هي مجموعة بني شاكر التي أسهمت في حركة الترجمة إلى حد مقبول، وتعاونت مع آل حنين ومن سار في ركبهم على طريق الترجمة إلى العربية التي كانت عن اليونانية والفارسية والهندية[39]. وبذلك يكون المسيحيون قد عملوا بقوة على تعميق جذور حضارية في شتى أنواع العلوم والآداب، وكانوا فضلًا عن ذلك أساتذة في معظم المراكز العلمية، ولاسيَّما منها التي كانت تعنى بالعلوم التطبيقية من طب وصيدلة وفلك وعلوم طبيعية وفيزيائية وزراعية وفلسفية وغيرها. وسيبقون رواد هذا الشأن طوال العصر العباسي الأول، وسيبقون كذلك في العصر العباسي الثاني ولكن بدرجة أقل. أمَّا على بقية الصعد فكانوا أيضًا أوفياء لأعمالهم التي كانت في الإدارة والاقتصاد والدفاع عن الوطن بالوسائل الناجحة كلّها.

وقد اعتمد الخلفاء العباسيون على المسيحيين اعتمادًا كبيرًا في مسألة جمع الخراج وبقية الضرائب، فكانوا بحق موضع ثقة الخلفاء العباسيين بهم، ومن شدة إخلاصهم وحرصهم على جمع الضرائب والمكوس وما يتعلق بها، كانوا يلجؤون إلى وسائل قاسية بحق كل من يتذمر أو يرفض دفع الأموال المفروضة عليه[*].

وفي عصر الدولة الفاطمية شغل المسيحيون دورًا كبيرًا في البناء السياسي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي، ساعدهم على ذلك إيمانهم بحق الوطن عليهم بوصفهم مواطنين صالحين من جهة، وشجعهم الفاطميون واعتمدوا عليهم في عدد من المواقع والمراتب الإدارية العالية من جهة ثانية. وكان الفاطميون يريدون من هذه السياسة الحكيمة تعريب كل شيء في المجتمع دون أية ضغوط أو أعمال قسرية، فأصبح المفهوم العربي هو المفهوم السائد في المجتمع، فاختفت في مصطلحاتهم السياسية تسميات عرب وغير عرب، وتقلصت الفوارق بين أتباع الديانات الأخرى كالمسيحيين وبين المسلمين على سبيل المثال، فشارك هؤلاء جميعًا في وجوه النشاط العلمي والإداري والاقتصادي

39– علي أحمد: المرجع السابق، ص: 82.

(*) انظر تاريخ اليعقوبي، جـ3، ص: 146؛ وانظر أيضًا: متز الحضارة الإسلامية، تعريب عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة، 1940، جـ1، ص: 122.

والاجتماعي كلّها، وشغل المسيحيون العديد من المناصب الإدارية الرفيعة، ولاسيَّما منها منصب الوزارة، الذي تكرر إسناده غير مرة لرجال مسيحيين، برهنوا على كفاءة عالية وإخلاص لا مثيل له[40]. وكان من أشهر الوزراء المسيحيين الذين عملوا عند الفاطميين الوزير عيسى بن نسطوريس، الذي كان ينادى بالسيد الأجل.

فــي عصــر المماليــك:

ولم تتغير النظرة الإيجابية إلى المسيحيين بوصفهم مواطنين مخلصين في عصر المماليك، مع أن المماليك لم يكونوا من أصل عربي، وبذلك لم تتغير مواقع المسيحيين، بل استمروا في مواقعهم المهمة والمؤثرة كالإدارة والاقتصاد وبناء المجتمع على أسس قوية. وقد أدت سياسة احترام المسيحيين إلى ردة فعل إيجابية، جسدها المسيحيون في تصرفاتهم العامة حيال قضايا الوطن ومشكلاته، فقد برهن المسيحيون في العصر المملوكي كما في العصور السابقة على مواطنية عربية عالية، وبرهنوا بمواقفهم الإيجابية الكبيرة على صدق عروبتهم وحرصهم على وحدة بلادهم وحريتها واستقلال كلمتها. وكان من أهم مواقفهم في العصر الأيوبي والمملوكي، موقفهم من الحملات الفرنجية إلى بلدان المشرق العربي على مدى سنين طويلة، فقد وقفوا ضد هذه الحملات العدوانية، وكانوا على الدوام عينًا رقيبة على التحركات الفرنجية، كما عبر الرحالة ابن جبير الأندلسي خلال زيارته إلى مصر والشام خلال الحروب الفرنجية، وكان شاهد عيان على مواقف المسيحيين في الشام من الفرنجة يقول في رحلته بعد أن استرعى انتباهه في أثناء زيارته لبعض مناطق جل لبنان، المعاملة الرائعة التي يعامل بها المسيحيون أخوتهم المسلمون هناك، فأشاد من خلال هذه المعاملة بأخلاق المسيحيين وحسن تصرفهم وإيجابية موقفهم في جبل لبنان تجاه المسلمين، فكان هذا الموقف على الدوام موقف المعين المساند، حينما تحدق بالمسلمين الملمات وتكون المساعدة ضرورية وملحة يقول : «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا ما رأوا به أحد

40- هاملتون جب: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى: الترجمة العربية، طبعة المركز العربي للكتاب دمشق، ص: 25 وما بعدها؛ آدم متز: المرجع السابق، ص: 175. علي أحمد: تاريخ العصر المملوكي في مصر والشام، طبعة جامعة دمشق، 2009، ص: 140.

- Rosenthal. A, history of muslim historiography, Leyden, 1952, p: 171.

المنقطعتين من المسلمين، جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، يقولون هؤلاء من انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وإذا كانت معاملة النصارى هذه لغير ملتهم فما ظنك بعضهم مع بعض»[41].

وقد كان لمواقف المسيحيين هذه تأثيرها الإيجابي في نفوس المسلمين، ولاسيَّما طبقة العلماء منهم، فقد امتنعوا وترفعوا في الوقت ذاته عن تسمية الأوروبيين، الذين احتلوا عددًا من المناطق في بلاد الشام مثل الرها وأنطاكية والقدس الشريف وبعض المناطق المجاورة لها مدة طويلة، ترفعوا عن تسميتهم بالصليبيين إجلالًا وتقديرًا منهم للسيد المسيح عليه السلام من جهة، واحترامًا وتقديرًا للمسيحيين العرب في المشرق من جهة ثانية، ويُعدُّ هذا الأمر في طليعة ما سلكه الناس في العصور الوسطى، ذلك لأنه سلوك وطني وإنساني وحضاري فريد في بابه ومقامه ومقاصده، وهو يسجل للعرب المسلمين في سجل الريادة والتحضر على المستوى الإنساني العام. ومن يقرأ في الكتب التي ألفت في موضوع الصراع العربي الأوروبي في العصور الوسطى، يرَ أن المؤلفين العرب استخدموا مصطلح (الفرنجة) للدلالة على مكونات الحملات الأوروبية التي وصلت إلى بلدان المشرق العربي قادمة من فرنسا وانكلترا وألمانيا والدانمارك وغيرها[42].

وعلى إثر تحرير مدينة بيت المقدس في معركة حطين سنة 583ه/1188م، عيّن صلاح الدين الأيوبي خطيبًا أندلسيًا في المسجد الأقصى، هو علي بن محمد بن جميل المعافري، الذي عكس في مسلكه وعلاقاته السياسة العربية آنذاك التي كانت تعدُّ الصراع مع الفرنجة في وجه من وجوهه على الأقل صراعًا وطنيًا ينبغي أن يسهم فيه المواطنين جميعًا بغض النظر عن مذاهبهم وأديانهم، فقرب إليه زعماء الكنيسة الشرقية، ذلك لأن الكنيسة الغربية الأوروبية هي التي شجعت الفرنجة على العدوان ضد المشرق العربي، واستخدم يوسف بن بابيط مستشارًا له، وهو زعيم مسيحي مقدسي كانت له قيمته بين سكان بيت المقدس، ولاسيَّما المسيحيين منهم، وكانت معاملة المعافري للمسيحيين معاملة

41– ابن جبير: الرحلة، ص: 259.

24– علي أحمد: المرجع السابق، ص: 142.

طيبة في الميادين كلّها، لذلك فقد حزنوا جدًا على موته سنة 605ه/1209م، وقد تجلى حزنهم عليه في أثناء تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير، فقد رافق قسم كبير من مسيحيي بيت المقدس جنازته، وكانوا يرمون بثيابهم على الجنازة، ويتداولونها فيما بينهم، ويمسحون بها على وجوههم تبركًا به، وأخيرًا أخذوا بردته، وقسموها إلى قطع صغيرة، ووزعوها عليهم تبركًا واحترامًا لشخصه وذكراه. وقد شهد العصر المملوكي في مصر والشام انفتاحًا كبيرًا على استخدام المسيحيين في المناصب الإدارية المهمة، وفي الاقتصاد ولاسيَّما مجال التجارة. وقد كان المسيحيون روادًا في هذه المجالات، فنالوا إعجاب السلطة ومحبة الناس لهم، مما دفع السلطة المملوكية أن تقدم كل مساعدة ممكنة لهم في داخل مصر والشام وخارجهما[43].

فـــي الأندلـــس والمغـرب:

أمَّا في الجزء الغربي من الوطن العربي الكبير الذي تمثل في العصور الوسطى بالمغرب والأندلس، فقد شكل المسيحيون مكونًا مهمًا من المكونات البشرية في هذا الجزء العزيز، وتميزوا بأخلاقهم الطيبة، ووفائهم للدول والأوطان التي عاشوا وقضوا فيها. فقد منحت حكومات الأندلس المسيحيين حريات واسعة في شتى مجالات الحياة، مع أنهم لم يكونوا من أصل عربي، ذلك لأنهم وقفوا موقفًا إيجابيًا من القضايا العربية، ولاسيَّما المستعربين[44] الذين شاركوا مشاركة فعالة في الحياة العربية بالأندلس، فقد عملوا في الإدارة العامة وفي الطب والاقتصاد، وكانوا صادقين ومخلصين في أعمالهم مع وجود بعض المواقف الاستثنائية التي لا يعول عليها، وهذا ما جعل العرب يعطونهم حرية القضاء[45] منذ عصر الولاة، وكان قاضيهم يسمى قاضي

43- عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة سفره، قسم: 1، ص: 315 وما بعدها؛ علي أحمد: تاريخ العصر المملوكي، ص: 214.

44- المستعربون هم مجموعة كبيرة من الإسبان بقوا على دينهم وتخلقوا بأخلاق الثقافة العربية الإسلامية.

45- خالد الصوفي: تاريخ العرب في إسبانيا، طبعة مكتبة دار الشرق، حلب، من دون تا، ص: 91؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ1، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة: ط4، بيروت، دار الكتاب العربي، 1967.

النصارى أو قاضي العجم[46]. لكن الشيء الذي لم يحكموا به هو مسألة شتم النبي ﷺ أو التقليل من قدر الدين الإسلامي، فمن كان يقدم على شيء من ذلك، كان يقدم إلى القاضي المسلم[47].

وقد عرفت في عصر الخلافة الأموية بالأندلس بعض أسماء القضاة المسيحيين الذين كانوا على علاقة طيبة ببعض خلفاء الأندلس، مثل القاضي أصبغ ابن عبد الله بن نبيل قاضي النصارى بقرطبة في عصر الخليفة الحكم المستنصر، وأصبغ بن سلمه الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر حاكم الأندلس، سنة 385ه/995م لحل خلاف وقع بين الفوسو وبعض المتنفذين في جليقية، وقد حُل الخلاف من قبل القاضي المذكور، ووليد بن حيزون الذي شغل دور المترجم بين الخليفة الحكم المستنصر وبعض الوفود الأوروبية، التي جاءت إلى قرطبة للزيارة[48].

هذا وقد شغل بعض المسيحيين بالأندلس أدوارًا رفيعة المستوى، ولاسيَّما في الميدان الإداري والسياسي، منذ الأيام الأولى لقيام الدولة العربية هناك، وكان عصر الخلافة وعصر الطوائف من أهم العصور، التي اشتهر فيها أهل الذمة عمومًا في الإدارة والسياسة ولاسيَّما في عصر الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر[49].

وقد تركت للمسيحيين بالأندلس حقوق اختيار دينهم ومعتقدهم، ولم يجبروا في يوم من الأيام على اعتناق الدين الإسلامي. وإذا كانت قد حدثت بعض المشكلات في هذا المجال، فهي حوادث مؤقتة وفردية، سببها بعض الفقهاء المتعصبين الذين تجاوزوا حدود تعاليم الدين، وغلّبوا الجهل على العلم. وقد أدت هذه السياسة الناجحة إلى أن مجموعة كبيرة من سكان الأندلس، دخلت في الدين الإسلامي وعُرفت بالمولدين [*]. وفي

46– محمد فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ص: 184.
47 – النباهي: المصدر السابق، ص: 56 وما بعدها.
48– ابن خلدون: العبر، جـ7، ص: ؛390 المقري: نفخ الطيب، جـ1، ص : 39 وما بعدها.
49– ابن عذاري: البيان المغرب، جـ3، ص: 77 وما بعدها؛ ابن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام ص: 112.
(*)– لكن المولدين لم يكونوا أوفياء للقضية العربية بالأندلس، فقد تبيّن أنهم كانوا يخططون من خلال عملية دخولهم في الدين الإسلامي، إلى استغلال ذلك للوصول إلى السلطة وطرد العرب من الأندلس، ودليل ذلك ثورة عمر بن حفصون المولدي الذي أقض مضجع الإمارة الأموية بالأندلس، ولم تتمكن قيادة هذه الإمارة من وضع حد لثورة ابن حفصون حتى جاء الناصر لدين الله، الذي أنهى هذه الثورة سنة 315هـ.

المقابل بقيت مجموعة كبيرة من سكان الأندلس على الدين المسيحي، وعُرفت هذه المجموعة بالمستعربين الذين عاشوا تحت راية العروبة والإسلام حياة رفاهية، لا يعكرها شيء سوى بعض المواقف الآنية، التي نشأت عن تغليب العاطفة والجهل على العقل والعلم . نذكر من ذلك موقف بعض المسيحيين من ثقافة العرب والإسلام في عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، الذي كان حازمًا في ذلك الذي حدث، وما حدث هو أن بعض رجال الدين من المسيحيين المتعصبين، أظهر تضجره وإزعاجه المفرط من تقدم الثقافة العربية وانتشارها على حساب الثقافة اللاتينية. وقد حدث ذلك من خلال إقبال المستعمرين الإسبان على التعمق بالثقافة العربية بمختلف أنواعها، ونبغ عدد منهم في عدة فروع من هذه الثقافة، وهذا ما شجع رجال الدين المسيحيين على القيام بحملة مناهضة للثقافة العربية وللإسبان الذين انكبوا عليها فتعربوا لغة وثقافة وموقفًا. وكانت حجة رجال الدين المسيحيين المتعصبين، أن الثقافة العربية أثرت في اللغة والثقافة اللاتينية التي كتب فيها الكتاب المقدس فضلًا عن سير القديسين . وقد تزعم حركة رجال الدين المسيحيين هذه الراهب (إيلوخيو)، الذي ركز على مسألة التمسك باللغة اللاتينية والعزوف نهائيًا عن اللغة العربية وثقافتها. لكن محاولاته انتهت إلى الإخفاق، ذلك لأن تأثير ثقافة التعريب، كان كبيرًا في صفوف قسم كبير من المسيحيين الإسبان، فتحولت هذه الحركة إلى هجوم قوي على الدين الإسلامي، وكان المحرضون على ذلك يغرون الناس بوعود غير واقعية، استندت إلى فكرة هي أن كل من يعادي الإسلام، ويموت وهو يحاربه فهو شهيد، لذلك سميت هذه الحركة عند أصحابها بحركة الاستشهاد، وسميت عند العرب حركة الاستخفاف، ذلك لأن بعض أعضائها كانوا يستخفون عن قصد بمقدسات المسلمين أو بعضها، فقد أقدموا على سبيل المثال في بعض الأوقات على شتم النبي محمد ﷺ كما فعل شخص بقرطبة اسمه (برفكتو) فأحُيل إلى القضاء وحُكم بإعدامه سنة 235ه/850م. وكذلك رجل اسمه (اسحق) في السنة التالية، فحكم عليه القضاء بالإعدام[50].

لكن هذه الحركة لم تستمر طويلًا، ذلك لأن المستعربين الإسبان، وجدوا في استمرارها خطرًا داهمًا على المكتسبات الكبيرة، التي حصلوا عليها في ظل الحكم

50- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص: 144.

العربي بالأندلس، فأعلنوا عن استنكارهم لهذه الحركة برمتها، وعقد بمدينة قرطبة مجمع ديني بموافقة الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط برئاسة مطران اشبيلية (ريكا فريدو) في سنة 237ه/852م، واتفق المشتركون في هذا المجمع على استنكار الأعمال كلّها ، التي قام بها أصحاب حركة الاستشهاد وأدانوها، وعدوها حركة غير مسؤولة على الإطلاق، لأنها خرجت على إرادة الكنيسة[51].

ومما يؤكد وفاء المستعربين الإسبان للوجود العربي بإسبانية، أنهم وقفوا موقفًا إيجابيًا لم يقفه العرب أنفسهم، وذلك في أثناء سقوط مدينة طليطلة بيد حركة الاسترداد الإسبانية الوطنية سنة 478هـ/1085م، فقد تحرك المستعربون بقوة لدى زعامة حركة الاسترداد الإسبانية، وحاولوا بالوسائل كلّها أن يرفعوا الضيم عن العرب جراء نكبة سقوط طليطلة، وكان ذلك برئاسة شخص اسمه (ششند)، الذي حاول عبثًا أن يقنع قيادة حركة الاسترداد مع مجموعة دينية فرنسية، كانت تتبع لنظام عُرف بنظام (دير كلوني) نسبة لدير كان قد نشأ فيه هذا النظام بمدينة كلوني الفرنسية، وهو نظام عنصري متعصب كان هدفه الأساسي، استئصال شأفة الوجود العربي في القارة الأوروبية[52].

هذا ولم يتغير موقف المستعربين المسيحيين حيال الوجود العربي بالأندلس إلا حينما تحكم الفقهاء في القرار السياسي قي عصر المرابطين، فوجد المستعربون أن حكم المرابطين أضحى خطرًا على حياتهم، ذلك لأن الحكم لم يكن مستقلًا عن تسلط الفقهاء، وبدلًا من أن يكون كذلك فإنه اعتمد عليهم اعتمادًا كبيرًا، لم تشهد له الأندلس مثيلًا على الإطلاق، ومن ذلك أن الفقهاء وأول مرة في تاريخ الأندلس، أقنعوا الحاكم المرابطي يوسف بن تاشفين بتهديم كنيسة للمسيحيين بباب إلبيرة بغرناطة، كانوا قد بنوها في عصر الطوائف مستفيدين من جو التسامح، الذي ساد في هذا العصر[53]؛ الأمر الذي أثار حقد المستعربين المسيحيين على المرابطين، الذين لم يكونوا حتى هذا الوقت قد تحركوا ضد السلطة العربية، مع ظهور حركة الاسترداد منذ عدة قرون قبل هذا الحادث.

51– أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص: 145.

52 – أشباخ: تاريخ المرابطين والموحدين، جـ1، ص: 139.

53– ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: 114.

أدى هذا الحادث الذي تسبب به الفقهاء على عادتهم في إثارة المشكلات المذهبية المقيتة، إلى انتقال المستعربين إلى معاضدة حركة الاسترداد أول مرة في تاريخ الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يرون في هذه الجبهة حصنًا يحميهم من تعصب الفقهاء، الذين يديرون شؤون الحكم المرابطي، وقد ساعد هذا الأمر ألفونسو على اختراق أراضي الأندلس بدءًا من الشرق حتى وصل إلى غرناطة وقرطبة، ثم إلى البحر المتوسط في الجنوب، وكان يرى في كل مكان وصله ترحيبًا بالغًا من المستعربين، بعد أن فقدوا الأمل في تحسن أحوال المرابطين في ميدان إدارة الحكم على أساس المساواة بين الناس، هذا فضلًا عن أن الجيش المرابطي وقف عاجزًا عن القيام بأي عمل ضد ما كان يجري في هذه المدة وهي سنة 519ه/1125م[54].

وفي المرحلة المتأخرة من العصور الوسطى، أسهم المسيحيون المصريون بدعم الكنيسة الحبشية، ولعل من أبرز هذه الإسهامات وأكبرها مقصدًا وشأنًا، أن مصر هي التي كانت تزود الحبشة برجال الدين المسيحيين، وقد بدأ ذلك منذ عصر السلطان الظاهر بيبرس[55] الذي أرسل سفارة إلى الحبشة. ثم تطورت الأمور مع الحبشة في عصر السلطان المنصور قلاوون[56] الذي وافق على إرسال البطاركة المصريين إلى الحبشة[57]، ومع مرور الزمن تطورت علاقة المصريين والشاميين مع مسيحيي الحبشة، فنشطت عمليات الحج إلى بيت المقدس عن طريق البحر الأحمر والأراضي المصرية، وقد عومل الحجاج الأحباش أحسن معاملة، على الرغم من وجود الفرنجة في المنطقة. وكان في مدينة القدس دير للمسيحيين الأحباش، يمارسون فيه شعائرهم الدينية بحرية تامة، وقد أُحيط هذا الدير برعاية خاصة من العرب، بعد أن تحررت مدينة القدس من السيطرة الفرنجية، ووجود هذا الدير بمدينة القدس، يدل على وجود مجموعة كبيرة من الأحباش، كانت تستقر فيها بصورة دائمة[58].

54- علي أحمد: تاريخ المغرب القديم والإسلامي، طبعة جامعة دمشق، 2006، ص: 154.

55- حكم مصر والشام من سنة 658-676ه/1260-1278م.

56- حكم مصر والشام من سنة 678-689ه/1279-1290م.

57- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص: 170 وما بعدها.

58- ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص: 173 وما بعدها. ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص:12.

وفي مستهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حاول الفرنجة بعد أن طردوا من الشام، أن يغزوا مصر بالتعاون مع المسيحيين الأحباش، وشغلت البابوية في هذا الميدان دورًا كبيرًا، لكنها أخفقت في إثارة حمية المسيحيين الأحباش لتنفيذ هذا المشروع العدواني الخطير، فراحت تُعد لمشروع جديد أكثر خبثًا وتأثيرًا في مصر، من خلال الاعتماد على حكام البرتغال وأرغونة وغيرهم، الذين كانوا قد حملوا لواء العداء السافر للعرب في هذه المرحلة، ويتجسد هذا المشروع الخطير بإقناع الأحباش بتحويل مجرى نهر النيل عن مصر والسودان، وتحويل المياه التي تدخل إلى مصر إلى صحراء، تنعدم فيها الحياة نهائيًا[59].

ويُعدُّ هذا المشروع من أخطر المشاريع التي تثيرها اليوم دويلة الكيان الصهيوني تحت غطاء الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدتها أمام الأحباش لأنها تريد إنهاء الحياة في جنوب الوطن العربي الكبير، الذي يحتوي على ثلث سكان الوطن العربي، وهم يعتمدون في حياتهم ووجودهم على مياه نهر النيل، لذلك فإن من واجب المصريين والسودانيين أن يقيموا أحسن علاقات التعاون فيما بينهم، حتى لا تتطور معطيات هذا المشروع الخطير وأسسه ، الذي يشمل ضرره سكان الوطن العربي الكبير كلّه بصورة أو بأخرى.

وبالجملة فإن المسيحيين في العصور الوسطى، شغلوا دورًا إيجابيًا كبيرًا في تكوين جبهة عربية قوية، كان أساسها الشعور بالمسؤولية الوطنية التي لا تدانيها مسؤولية أخرى، وعملوا في الأوقات كلها بوحي هذه المسؤولية، فلم يبخلوا بشيء مهما كان غاليًا وثمينًا، في سبيل أن تبقى البلاد التي كانوا فيها مواطنين عزيزة الجانب قوية البنيان. وهذا ما جعل الحكام يقفون منهم كعنصر مهم من مكونات المجتمع العربي موقفًا عظيمًا، فيه مظاهر التقدير والإجلال والاحترام كلّها. فقد عرض بعض المتعصبين أو الجاهلين في السياسة على صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير القدس من السيطرة الفرنجية، أن يوافق على تهديم الكنائس بالقدس وجوارها، بحجة أن الفرنجة لن يعودوا إليها، فرفض ذلك

59 – سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص: 1213 وما بعدها.

رفضًا قاطعًا، وكان ذلك من أهم مواقف صلاح الدين الأيوبي على الصعيد الوطني والإنساني والسياسي.

ولكن الذي لابدَّ من التنويه به في نهاية الأمر، أن الصورة لم تكن كلها مرضية فيما يخص المسيحيين العرب، فقد صدرت عنهم بعض المواقف غير المستحبة، التي ذكرنا بعضها والتي لم نذكرها، لأنها في النهاية لا تؤثر في مسيرتهم العامة، ومعظم هذه المواقف صدرت عن غير وعي، ويمكن عَدُّها ردات فعل كثيرًا ما كانت تزول بسرعة على مواقف معينة، كانت تزعجهم وتثير فيهم بعض مشاعر الغضب المؤقت. من هذه المواقف هجرة مجموعة منهم من مدينة دمشق عقب تحريرها من البيزنطيين، وهذه المجموعة ذهبت إلى بيزنطة، وكانت مجموعة صغيرة لا تؤثر سلبًا أو إيجابًا. وكذلك الأمر فإن بعض المواقف السلبية، حدثت في عصر المماليك كانت برمتها مؤقتة لا قيمة لها، وكان سببها الأساسي يعود إلى فرض أوامر ضدهم من الحكام بتحريض من الفقهاء المتعصبين، كفرض لباس معين عليهم أو حرمانهم من أشياء معينة، كانت الحكام يتراجعون عنها بعد مضي وقت قصير، لأنهم لم يكن في خططهم إزعاج المسيحيين، والدليل على ذلك مساعدتهم خارج مصر، كما في الحبشة وغيرها منذ عصر الظاهر بيبرس الذي أمر بتزويد الحبشة برجال دين مسيحيين لإقامة الشعائر الدينية المسيحية هناك، لأن مثل هذا الأمر له منعكساته الإيجابية على الجميع في مصر والحبشة وغيرها.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني: الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت 1965. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد صبيح، طبعة القاهرة، 1964.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة البهية، ط1، 1882، ط2، بيروت، 1982.
- ابن إياس، محمد: بدائع الزهرو في وقائع الدهور، طبعة القاهرة، 1972.
- البلاذري: فتوح البلدان، طبعة دار النشر للجامعيين، بيروت، 1975.
- ابن بسام، أبو الحسن الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة القاهرة، 1975.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي: مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة دار صادر، بيروت، 1964.
- ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت وجمال محمد محرز وإبراهيم طرخان، طبعة القاهرة، 1972.
- ابن جبير، محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1959.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، طبعة القاهرة، 1973.
- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، ط1، القاهرة، 1980.
- ابن حزم، جوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، طبعة القاهرة، من دون تا.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، طبعة القاهرة، 1973؛ تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة بيروت، 1966.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق، 1284ه.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، 1950.
- ابن هشام، السيرة النبوية، طبعة القاهرة، 1955.
- الإدريسي، محمد بن محمد: جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليون، 1964.
- الذهبي، محمد بن أحمد: العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكويت، 1963/ 1966.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، طبعة أبو الفضل ابراهيم، من دون تا.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق غاتوا، طبعة الجزائر، 1948؛ تحقيق عبد المنعم عامر، وطبعة القاهرة، 1961.
- ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، طبعة ليدن، 1951/1948، وطبعة صادر، بيروت، 1950.
- ابن قتيبة: عيون الأخبار، طبعة القاهرة، 1958.
- القفطي، علي بن يوسف: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، 1326هـ.
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، طبعة بيروت، 1966.
- المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، 1951.
- المراكشي، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، من دون تا.
- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة بيروت، 1965.
- المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، 1949.

المراجـــــع

- ابراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، طبعة القاهرة، 1953.
- ابراهيم سعيد، وعلي أحمد: نهاية عظماء العرب في العصور الوسطى، طبعة دمشق، 1999.
- أحمد الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، طبعة المكتبة التاريخية، القاهرة، 1965.
- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة دار المعارف، بيروت، من دون تا.
- أحمد أمين: ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، 1938.
- آدم متز: الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1966.
- بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، طبعة القاهرة، 1933.
- خالد الصوفي: تاريخ العرب في إسبانيا، طبعة مكتبة دار الشرق، حلب، من دون تا
- زكي محمد حسن: فنون الإسلام، طبعة بيروت، دار الرائد العربي، من دون تا.
- شعبان خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، طبعة القاهرة، 1997.
- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، طبعة القاهرة، 1952.
- عادل عوا: الكلام والفلسفة، طبعة جامعة دمشق، 1961.
- عبد الرحمن مرحبا: تاريخ العلوم عند العرب، طبعة بيروت، دار العودة، 1978.
- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، طبعة بيروت، 1962.
- علي أحمد: مظاهر التعريب في الدولة العربية في العصور الوسطى، طبعة دمشق، 2009؛ تاريخ المغرب القديم والإسلامي، طبعة جامعة دمشق، 2007. مظاهر الحضارة العربية في العصور الوسطى، طبعة جامعة دمشق، 2006. تاريخ العصر المملوكي السياسي والحضاري، طبعة دمشق 2009. تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، طبعة جامعة دمشق، 2008.
- عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ط2، 1981.

- فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، سلسلة الألف كتاب، من دون تا.
- محمد كرد علي: خطط دمشق، 1926.
- نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط3، بيروت، دار الفكر، 1975؛ تاريخ الدولة الأموية، طبعة جامعة دمشق.
- هاملتون جب: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، الترجمة العربية، طبعة المركز العربي للكتاب.
- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنا، طبعة القاهرة، 1941.
- Rosenhal, A history of muslem historuigraphy, leyden, 1952..

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2013/1/21